الدرس التاسـع/ الاتجـــاه النفسـي :

من المفاهيم الجديدة في النقد الأدبي الحديث ،إدراك الصلة بين الأدب والعلوم الإنسانية بخاصة**(علم النفس)**، والمعروف أن الصلة قائمة وقديمة قدم الأدب نفسه، بل وقدم الحياة نفسها. والعلاقة بين الأدب والنفس علاقة ترابط، فالأدب يصنع النفس، فهو يجمع حقائق الحياة لإضاءة الجوانب العديدة في النفس، والنفس تجمع أطراف الحياة لصناعة الأدب على حدّ تعبير الناقد **"**عزالدين اسماعيل**"**.

على أن هذا الاتجاه اتسع مفهومه في العصر الحديث، بعد أن ظهرت نتائج دراسات**(الفرويديين)** للغة والباطن في التحليل النفسي، وتأسيسه لعلم النفس، و تأسيسه لعلم النفس. وكذلك بعد أن أفاض أتباع **(كارل يونج)** في الحديث عن المز والأسطورة. لكن المنهج ذاته، يبدأ مع تكون علم النفس أوعلم التحليل النفسي عند **(سيقموند فرويد** 1856-1936**)** فقد لجأ " فرويد" إلى تاريخ الأدب يستمد منه كثيرا من مقولاته ومصطلحاته في التحليل النفسي ، فسمى بعض ظواهر العقد النفسية ـ مثلا ـبأسماء شخصيات مثل: عقدة أوديب وعقدة الكترا ... .

كانت النقطة التي انطلق منها "فرويد" في هذا الصدد تتمثل في تمييزه بين الشعور واللاشعور، بين الوعي واللاوعي، بين مستويات الحياة الباطنية، واعتبار اللاوعي أو اللاشعور هو المخزن الخلفي غير الظاهر للشخصية الإنسانية، واعتباره مُتضمّنًا للعوامل الفعالة في السلوك والإبداع والانتاج. وكان اهتمامه مُنْصبًّا في ـ الدرجة الأولى ـ على**(تفسير الأحلام)** باعتبارها النافذة التي يطل منها اللاشعور، وباعتبارها الطريقة التي تعبر بها الشخصية عن ذاتها.

ولو عدنا للنموذج التوصيلي الذي يفهم العملية الإبداعية باعتبارها مجموعة علاقات متشابكة بين ثلاثة أطراف(المرسل والمرسل إليه والرسالة)، يمكننا أن نعتبر التحليل النفسي للأدب، انطلق ابتداء من العناية بالمرسل أي(المبدع الأديب ذاته) والربط بين انتاجه من ناحية، وبين تاريخه الشخصي من ناحية أخرى، هذا التاريخ الشخصي الذي يتمثل في مجموعة الخبرات المتراكمة لديه منذ سنّ الطفولة الباكر. فالسنوات الأولى من حياة الفرد تتكون فيها استجابته ومشاعره، ووتوتره، وتتكون طريقة نظرته للأشياء، واستراتيجيته ومواقفه في الحياة، ويتكون ما هو أعمق من ذلك تجذرا في داخله، وهو تلك الناطق الحساسة التي تظل تحكم فيما بعد منظومة رموزه واستجاباته العاطفية والوجدانية. فإذا ما كان هذا الإنسان فيما بعد مبدعا أو شاعرا، أصبح محكوما بجملة تجاربه الطفولية تلك، و أصبحت هي التي تمثل الجذر الأساسي لإبداعه، والمرجعية الحقيقية لما يستخدمه من رموز وأساطير، ولما يوظفه من أدوات الإبداع الأدبي.

لم تلبث مدارس علم النفس أن تطورت وتشعبت، ونشأت إلى جانب التحليل النفسي عند" فرويد" وتلاميذه، اتجاهات أخرى في اكتشاف جوانب غير" فرويدية" لربط العالم الداخلي بالإبداع الأدبي. ومن أهم هذه التيارات، مدرسة**(كارل يونج)** الألماني في**(علم النفس الاجتماعي)** الذي أسس مفاهيمه عن **(اللاشعور الجمعي)** متجاوزا بذلك الطابع الفردي الذي اقتصرت عليه دراسات "سيقموند فرويد" .

فإن" اللاشعور الجمعي" هو الأهم عند (يونج) لأنه مصدر الإبداع في نظره، فحين تنهار رموز المجتمع الحية وتتابع الأزمات الاجتماعية، يتحرك اللاشعور الجمعي لإعادة التوازن، حيث أن مهمته تعويضية، ويرى "يونج" أيضا، كشف العلاقة بين المبدع والمجتمع ويعتبر هذه العلاقة خطوة هامة في تفسيرعملية الإبداع. ويمثل **(الشعور الجمعي)** عند"يونج" مجموعة التجارب الإنسانية التي انحدرت إلينا من الأجداد والآباء، فكما نرث عنهم صفات بيولوجية، نرثعنهم صفات نفسية أخرى أيضا، وأن الفنان هو القادر على اظهار هذه الصفات في أعماله الفنية.

كما يرى" يونج" أن الباعث على الفن هو العقل الباطني، الذي يعتمد الرمز والأسطورة لفهم الآثار النفسية في النقد الأدبي، فيسمح للأساطير والشخصيات الأسطورية والخرافية والشعبية ذات المعاني الدفينة في أعماقنا بالظهور من جديد في أعماق البدعين، ولهذه فإن هذه النماذج تؤلف مادة لاغنى عنها للرموز والصور الت تعج بها الأعمال الأدبية الجديدة، فكأنها تعبر عن<< غائب مستتر لدى الجماعة التي ينحدر منها الشاعر أو الكاتب>>.

****ـ الاتجاه النفسي في الخطاب النقدي الجزائري:**

فإنه يعسر البحث عن موقع النفسانية من الخطاب النقدي الجزائري، وهذا راجع إلى عدة عوامل مختلفة ـ ربما منها ـ قلةرصيد نقادنا من المفاهيم السيكولوجية، ضف إلى ذلك عدم اهتمام الجامعات الجزائرية بهذا المنهج النقدي إلا في وقت متأخر، حين اعتمدت "علم النفس الأدبي" كمقياس يدرس. إضافة إلى صلة الحركة النقدية الجزائرية بالنقد النفسي قد تزامنت مع غزو المناهج"الألسنية"الجديدة للساحة النقدية. ورغم ذلك أنه سعت بعض الدراسات الأكاديمية، تطبيق المنهج النظري للنقد النفسي، أمثال: الباحث"عبد القادر فيدوح" في دراسته:**(الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي)**، حيث قال:<< إن التعامل مع النص وفق منظور سيكولوجي يمنحنا قراءة خاصة عبر صياغته الفنية التي رؤية لعالم الإنسان الخفي واستدعاء تجليات اللاوعي الجمعي...>>.

أما " أحمد حيدوش" في دراسته:**(الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث)**، فيرى أن<< الاتجاه النفسي في النقد العربي الحديث أكثر اتجاهات وضوحا...ومنه تأتي أهمية دراسة هذا الاتجاه لكنه منفذا يجدد بعض سمات النقد العربي الحديث من جهة، ويكشف عن أهمية استخداو المعرفة العلمية في النقد الأدبي وأخطارها من جهة ثانية>>.

كما نجد الحديث عند بعض الباحثين الجزائريين عن المؤثرات النفسية في التجربة الأدبية، من بينهم الدكتور"محمد ناصر" في كتابه **(الشعر الجزائري الحديث، اتجاهاته وخصائصه الفنية)** مستعرضًا المؤثرات النفسية في الشعر الجزائري الحديث. بالإضافة إلى دراسة الدكتور" أحمد شريبط" **(النص النقدي الجزائري من الانطباعية إلى التفكيكية)**.

إن النقد النفسي على تفرع اتجاهاته (السلوكي والوجودي)، ظل يتحرك ضمن ربط النص باللاشعور صاحبه، والنظر إليه على أنه عصابي، والنص عرض له يعكس المكبوت في شكل نص مقبولا اجتماعيا، لذلك عدت اللغة هي الحاملة للمعاني، نتوصل من خلالها إلى أعماق الإنسان لمعرفة حقيقة وأسرار نفسه في حواره اللاوعي، فاللغة إذًا وسيلة لمعرفة الإنسان، بينما في النقد الجديد هي وسيلة لرفضة، ورفض التاريخ والمجتمع.